كبيرة من النصارى أهل شنترين(1) أعادها الله وهزموهم وغنموهم واستأصلوهم قتلاً وسبياً ، فكان ذلك عنوان الفتح لما يذكر بعد في هذه الغزوة . ثم أبا سعيد وأبا عبد الله خرجوا من إشبيلية بالعسكر الميمون الى مدينة غرناطة لدفع المحاربين الأشقياء عن جهاتها وحماية صيفتها فعند خروجهم من قرطبة الى جهاتها التقوا على غير ميعاد ولا معرفة بعسكر مجتمع معد من عسكر ابن مردنيش بحصن لك(2) ، فكانت بينهم مدافعات عميمة، وكرات في معركة من الحرب عظيمة ، ظهر فيها من إقدام أبي عبد الله بن يوسف ومن أعيان العرب وسائر العسكر ومن صبرهم ودفاعهم وقراعهم [122] ما لم يظهر مثله إلا في زمان الأبرار ، المجاهدين الأخيار، تواصلت الحرب بينهم طولَ يوم على شُرب الماء في وادي(3) لك المذكور ، وانفصت الحرب عن ظهورهم وثباتٍ من الموحدين وحيرة من المنافقين واستغراب منهم ، كيْفَ يوجد مثل هؤلاء في الموحدين ، فوصل كتاب أبي سعيد يخلف بن الحسين وابي عبد الله بن يوسف الى الأمير بمراكش مستغيثين معرّفين بهيئة حربهم ، وموافقتهم في طعنهم وضربهم ، وذلك في أول يومٍ من شهر رمضان المعظم من عام ستين وخمس مائة السيد الأعلى أبو حفص رضي الله عنه لله غيرة عظيمة ، وعسكر في يومه ، وأمر بالنفير اليهم والإسراع بالموحدين من الصابرين ، ونخبة الفرسان الأبطال من العرب الرياحيين والأثبجيين(4) والزغبين ورجالهم . والنفوذ لديهم وخرج من الحضرة في العشر الأول من شهر رمضان المعظم

(1) شنترين (Santaren)، تقع شمال لشبونة، على جبل شاهق بينها وبين بطليوس كما يقول الحميري أربع مراحل.
الروض المعطار ص 113 - 114.
(2) حصن لك (El castillo luque) يقع جنوب غرناطة على مقربة منها.
ويسي: ص 225.
(3) الذي تقدم هو حصن لك ولعل به وادياً يحمل أيضاً اسم وادي لك.
(4) يعتبر الاثبج من الهلاليين ولكنهم أوفر عدداً وأكثر بطوناً وكان منهم المقدم، والعاصم ابنا مشرف بن اثبج بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر. والموحدون هم الذين نقلوهم من افريقية إلى المغرب.
ابن خلدون المجلد السادس ص 48 فما بعدها.

المؤرخ بالعالم المذكور ، وخرج معه أخوه أبو سعيد عثمان وهي غزوته الأولى إلى ابن مردنيش السعيدة الفاتحة للموحدين أعانهم في عدوهم فأزعج السير حتى أجاز البحر ووصل مدينة إشبيلية بجمعه الظاهر ، واجتمع بالموحدين المذكورين بها وتذاكروا في الرأي ، واتّفقوا وتشاوروا ووقفوا وخرجوا من إشبيلية غازين عازمين مصممين الى بلاد ابن مردنيش في أول ذي(1) القعدة من عام ستين [123] المؤرِّخ ، فأول مدينة نازلوها له مدينة (أندوجر)(2) لقربها من قرطبة وأنها شجى في حلقها ومشتركة في تربها ، إذ هي من بسائطها ومحارثها . وموضع مستغاثها من المرافق في قديمها وحديثها ، ففتحوها في يوم نزولهم في ساعة قتالها ونزالها عنوة ، وبادر أهل الحصون المجاورون بدخولهم في التوحيد ، القريب منها والبعيد ، وشن العسكر المنصور بأمر الأمير السيد الأعلى خَيْلَه بالغارة على نواحيها فاستاقت المغانم على القرب والبعد ، وامتلأت أيدي الموحدين أعزهم الله من السبي والفيء وازداد نعماً الى نعمهم ، وشفيت قلوبُهم من وجدها وأجسامهم. وهُم بالجميع من ألمهم وتيقنوا ان ذمة الله موصولة بذممهم . وأنعم السيد الأعلى ـ أعلى الله أمره، وخلد في الدهور فخره ـ عند كمال هذا الفتح الميسر على الموحدين أعانهم الله بزاد وبركة زادها لهم أحساناً منه وانصافاً ، فتألقوا في المواخاة على ما كانوا عليه أضعافاً، واستعدوا بعدة القلوب للحروب، وفي العدد آلافاً ، ونهض السيد رضي الله عنه في هذه الغزوة السعيدة النُهوض الذي لم يتقدم لغيره في هذا الأمر ، ولا سبقه سابقٌ في قديم الزمان من العُمْر فإنه نهض بنيةٍ لله صافية وعساكر بالنصر ضافية ، وأجناد من الله معه متلاقية ، ولما كان الفراغ من شغل فتح أندوجر [124] المذكورة وثقف من وجب تثقيفه ، وسبى من سبى وتحكمت في ذلك رماحه وسيوفه ، واصطفى فيها من

(1) موافق 8 شتنبر 1165 - Huici: 226.
(2) أندوجر (Andujar) بلدة من مقاطعة جيان وتقع شمال شرقي قرطبة، مشيدة بشط الوادي الكبير يعبر لها على قنطرة في غاية العلو.
الغزال، نتيجة الاجتهاد ص 40 - 41.

رآه ، واستحسن مراءه ، أقلع منها قاصداً بلاد ابن مردنيش المذكورة وَالنّصر بين يديه قديماً ، والظفر معه أينما حل ظاعناً ومقيماً ، وتسامع ابن مردنيش أن العزم اليه ، على ما نوى عليه ، فاحتشد جميع أهل شرق الأندلس ومن اليه تحت عطاء ورزق ! وشعيته من معتق ورق ! واستدْعَى أحلافه النصارى من طليطلة وأنظارها، والعُصاة والجُناة من أقطارها ، فوصلوا اليه بجمع كبير ذميم حقير عند الله ، فرَّار عن الحق مهزوم معاند لأمر الله عن العصيان فاجتمع له جمْع ، وطَرَقَ لهم من الشيطان سمْع ، تسابقوا لاجابته ، وحماية غوايته ، فخرج بهم من مرسية مقره واعترض الموحدين أعانهم الله وهم بمدينة لورقة[1] وأقبل بجمعه اليهم وحبَس مضيقاً في الطريق عليهم لا يمكنهم الجواز فيه إلا بعد مقارعة ، فعدل الموحدون أيدهم الله عن ذلك المضيق الى الفحص المعروف بالفندون[2] في أوسع طريق وأيمن فريق وأتوا لورقة من غربها ، والشقي بعسكره بقربها ، ثم أنهم أقلعوا من منزلهم المبارك من نحوها ، وتوجَّهوا على طريقهم قاصدين مرسية ، فاقلع ابن مردنيش من موضعه بجمعه وتماشياً يومهم ذلك ، عسكر الموحدين أيدهم الله في جانب الجبل على ميمنة [125] الطريق ، وعسكر ابن مردنيش على يسرة الطريق في الجبل الآخر داما على ذلك في يومهم كله . فلما كان يوم الجمعة السابع من ذي الحجة من العام المؤرخ عام ستين وخمس مائة ، ووصلوا الفحص في وقت الزوال من شمس النهار المذكور أول فحص مرسية في الموضع المعروف بحامة بلقواد[3] ، وفحص الجلاب[4] على عشرة أميال من مرسية ،

(1) لورقة (Lorca) تقع جنوب مرسية بها يوجد فحص الفندودن تحيط بها بعض القرى لكن أهمها قرية (تازة) . الحميري : الروض المعطار صفحة 171 - 172 .

(2) الفندودن، يقع شرقي مدينة لورقة، جنوب قرطاجنة. هذا وقد أعطاها ويسي نفس الاسم : (Al Fundum) . الادريسي : نزهة المشتاق ص 194. ويسي : الخريطة بين صفحة 228 - 229 .

(3) كذا في الأصل : حامة بلقواد أو بلقوار، ويظهر من ابن صاحب الصلاة انه اسم ثان لفحص مرسية الذي يحمل أيضاً اسم فحص الجلاب، وقد تجنب ابن عذاري الاسمين معاً واكتفى بالقول بأنهم «وصلوا أول فحص مرسية على عشرة أميال منها . .» .

(4) راجع في هذه الموقعة الحلة السيراء ص 230 والدكتور أشباخ، تاريخ الأندلس ترجمة عبد الله عنان ص 319.

ألح عسكر ابن مردنيش بالدفاع وطلب ، فعبّى صفوفاً ، وتميزوا أجناساً وصنوفاً ، وتميزوا[1] بكلّ قبيل من طوائف الموحدين الصابرين الصادقين ، أهل هرغة[2] ، وأهل تينملل ، وهنتاتة[3] ، وقدميوه[4] ، وجنفيسة[5] وجميع القبائل على مراتبهم ، ومن قبائل العرب الهلاليين والرياحيين والجشميين والزغبيين ، وجميع العبيد للأمر العالي المرتسمين ، وتيسروا للّقاء ، وتعاهدوا على الثبات والصبر في إقامة طاعة الله تعالى ودفاع اعدائه ، ودخول الجنة بذلك على طول البقاء . فدفع ابن مردنيش بعسكره فيهم بأصحابه النصارى أولاً ثلاث دفعات : أولى في العرب واثنين في الموحدين ، فانجد الله المؤمنين في ذلك وثبتهم ، وقوّى قلوبهم وعزمتهم ، فعظم بينهم غمام القتام ورجع شمس النهار في نهاية الظلام وترادف بالأظلام ، وتماشت الركب بالركب ، وعظم الطعن بالرماح [126] المداعس ؟ والضرب بالسيوف القضب المشارف المجرَّبة عند العرب ، الى أن فتح الله للمسلمين ، وولى الكفرة أدبارهم ، وكان بعون الله تعالى أدبارهم ، ومحا الله تعالى بسيفه آثارهم ، وقتلوا قتلاً ذريعاً ، وخر أكثرهم صريعاً ، وفر ابنُ مردنيش مهزوماً قد عاين مصارع أصحابه وأحزابه الكفرة جميعاً ، واستند إلى جبل قريب من المعركة ضرب فيه قبة خباء على معنى خدعة الحرب أقام مع فله المهزوم ، في ذلك ساعة من بقية اليوم ، إلى أن ستره الليل ، وقد أحدق به الثكل

(1) جرت عادة الموحدين على «تمييز» الجيش عند كل مناسبة حتى يعرف كل قبيل وصنيعه، وهكذا فأهل المغرب بقبائلهم على حدة. وقبائل العرب كذلك، والموالي بدورهم يميزون . . البيذق، أخبار المهدي ص 245 وص 53 (الترجمة)، راجع ص 295 وما بعدها من كتاب المن بالإمامة . .

(2) هرغة : تقع شرقي مدينة تارودانت بين السوس الأدنى والسوس الأقصى (أنظر خريطة بروفنصال في أخبار المهدي) .

(3) هنتاتة : تقع جنوب مدينة مراكش بين حصن كيك ومدينة تينملل (أنظر أخبار المهدي) .

(4) قدميوه أو جدميوه : تقع غربي هنتاتة وتينملل . . .

(5) تقع قبيلة جنفيسة جنوب جدميوه، وتعتبر الطبقة العاشرة من أصحاب المهدي . . . راجع التعليق رقم 5 ص 68 .

والويل ، وركب في حينه وفرَّ الى مرسية وانحجَزَ فيها مهزوماً ، مفلولاً ذليلاً ملوماً ، ثم إن الموحدين أيدهم الله أقلعوا في بكرة غدهم من ليلة مبيتهم بموضع المعركة الى مرسية في أتباعه ، فنزلوا بساحتها ، وأقاموا فيها وعيّدوا عيد الأضحى بأباطحها وموضع راحتها ، من مقره ، في دار مفره ، على مرأىً منهم بظاهر مرسية المذكورة في تخريب بساتينه ، وإباحة الخطوب في مواضع منتزهاته من راحه ورياحينه، وتتبعوا تلك الأسقاع، بالتدمير في تدمير، والغارة على جنباتها بالاتساع، فاستاقوا نعم أهلها وتحكّموا فيما أملوه بالتطاول في سهلها وجبلها مدة أيام كثيرة بالأمن لهم في الإقامة، والتعقيب بالغارات في كلّ نظرٍ واستجلاب المغانِمِ على [127] أوفى السلامة، وانتهوا من الانتهاب إلى أقصى غاية، وبما زاد على الأمل والنّهاية، وخاطبوا من مضرب محلتهم بظاهر مرسية للخليفة الرضَى أبي يعقوب رضي الله عنه بوصف الفتح العظيم ، ونيل النجح الجسيم ، وشرح الحال ، فوردت البشرى بحضرة مراكش أدام الله حراستها صبيحة يوم الأحد الثالث والعشرين من ذي الحجة من عام ستين المؤرخ ، على تاريخ ستة عشر يوماً من ظاهر مرسية الى مراكش ، وهذا غاية السير .

(وصول خبر الانتصار على ابن مردنيش لمراكش)

ومن عجائب الفال ، قال المؤلف : كنت صبيحة يوم الأحد الذي وصلت فيه هذه البشرى الفاتحة قد بكّرت على العادة الى « منتيقمّي »[1] دار الخليفة رضي الله عنه جالساً مع طلبة الحضر وأشياخ أهل الأندلس نتطلع

(1) لم يكن ابن صاحب الصلاة كالبيذق الذي استهلك في «أخبار المهدي» الكلمات البربرية بكثرة، ولكنه استعملها قليلاً في بعض الأحيان ولفظ «منتيقمي» أصله «أمي نتكمي» Emin - Tgêmmî ومعناه باب الدار، والقصد في الكتاب إلى «السقائف» كما يشرحه هو نفسه بنفسه ص 281 ورقة 141 وإذا ما رجعنا لما حكاه ابن سعيد عن مباني مراكش على عهد الموحدين سنجد أن باب الاسطوان أو باب السقائف منه كان الخليفة يخرج إلى سقائف أهل الجماعة وهي ذرية العشرة، وإلى سقائف أهل الخمسين وسقائف الطلبة وسقائف الحفاظ وسقائف أهل الدار الخ. البيذق =

الأخبار وقد بعد زمانها وتوقف الواصلين بها ، إذ رأيت قطّا على سقف دار الخليفة يمشي وفي فمه فرخ حمام قد افترسه فقلت لمن كان معي من أشياخ أهل الأندلس : الله أكبر ! هُزم والله ابنُ مردنيش ! فقالوا لي : بم تقول هذا؟ فقلت لهم : هذا القطّ شبه الأسد والأسد عدوي[1] ! والحمام عجمي ! فقد غلبت الموحدين العجم ، وافترسوهم كافتراس هذا القط الفرخ ! فما كان مقدار ما أكملنا الكلام في هذا الفال ، ودخل الفرسان الواصلون بالبُشْرَى في الحين بخيلهم في « مُنْتِيقِمّي » [128] وبأيديهم علامات[2] ابن مردنيش مستورة ، على غير علم ولا مقدمة من وصولهم ، ففزع الناس أولاً لدخولهم بغير مقدمة ولا إذن، ثم علموا من صحيح صياحهم أنها بشرى بالفتح ، فقام التكبير والتهليل ، وضربت الطبول واتصل السرور ، وأمر الأمير في الحين بادخال مَن حضر من الطلبة والناس لسماع الكتاب الواصل بالبشرى والفتح وقرأهُ الفقيه أبو محمد المالقي على جميع من حضر ، ثم بعد قرىء في الجامع على جميع الكافة من الناس . وهذه نسخته الى حضرة الأمير بمراكش وإلى أهل إشبيلية من إنشاء الكاتب أبي الحسن عبد الملك بن عياش :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم

من عُمَر وعُثمان ابني أمير المؤمنين الى الطَّلبة والأشياخ والأعيان والكافة بإشبيلية أدام الله كرامتهم بتقواه ،

سلامٌ عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أمّا بعد فالحمد لله القاهر الغالب، ناصر جُنْده، ومنجزُ وعْده، في المشارقِ والمغارب، والصلاة على محمَّد المُبْتَعث وسيطاً في ذُؤابة لؤي بن غالب، وعلى آله وأصْحابه والماشين عَلَى سنَنه وسنَّته على

= أخبار المهدي ص 232 Laouste, mots et choses Berbèrses P. 1 محمد المنوني - الفنون على عهد الموحدين ص 138.

(1) بضم العين نسبة بلاد العدوة: المغرب، ومن المعلوم أن الغاب المغربية كانت مأسدة. راجع التعليق 1 ص 203.

(2) هكذا يجمع العلم أو (العلاّم) في لغة المغاربة: علامات.

. Colin, Notes de dialectalogie arabe Hesp T. X. 1930 page 106



أوضَح المسلكِ الواجب، والرّضا عن الإمام المَعْصُوم، المَهْدِي المَعْلُوم، النَّاهض بأمْر الله تَعالى قياماً بالواجب، للحادِّ المحادِّ والمجانِب، والدُّعا لمولانا وسيّدنا أمير المؤمنين حامل لوائه [129] والمِلَّةِ على مِنْهاج الحق، النَّاسخ لمفترقاتِ المَذاهِب، مُمْشِي الدَّعوة الإمامية، والكلمةِ الموحدِية، في شُعَاع نوره المجلِّي للغَيَاهِب، ثُم لِفَرعِه الأنْمَى، ونَجْله الأزكى، الأمير الأجل، الملك الأسعَد الأعْدل، أبو يعقوب ذُو الحَسَب المحلّى بالمَنَاقِب، المُسامي للنُّجوم الثَّواقِب، المُخْتار مدْخوراً لأمر الله تعالى المخصُوص بغَرائب الرَّغائب، فكتَبْناه - أكرمكم الله بتقواه، وأوزعنا وإياكم شُكْر نُعماه - من مَضْرب محلَّات المُوحّدين - أنْجَدَهم الله - بظاهِرِ مرْسِية يسَّرها الله، وصُنْع الله الجميل، وفتحه الجَزيل، قَدْ وضَح نهاراً، وفهق أنْهاراً، وعلَتْ كلمتُه العُليا جِهَازاً، وبركةُ الإمام المَهْدِي، وسَعَادةُ سيِّدنا، ويُمْن الأمير الأجَل - أيدهم الله قد يوَّغت طائفَة الحَقّ نصراً وإظْهاراً، واعتضاداً في ذَات الله واسْتظهاراً. . والحمد لله رَبِّ العَالمين. وقد خاطَبْناكُم قبلُ بِمَا كانَ من صُنع الله تعالى في فتح أنْدُوجر وتوحيد الحُصون التي تليها عمّرها الله، وتجدَّد بعد ذلك لكم من صُنع الله وحده من مطَّرد الفتح الموعود، المحفوف بالمناجع والسُّهود، ما جَلَّ عن نعتِ الناعت، وشذَّ عن الشاذ الفايت، وكبُر عن وصفِ الواصف، ونثر الناثر، ورصف الراصف، وأظهر من آيات الله تعالى ما فاق بيان ذوي المعارف، من صنعٍ لم يُرَ مثلُه في كثيرٍ من الحِقَب، ويوم كيوم ذي[1] قار انتصف فيه الموحدون والعرب من العجم، ولمن [130] سارَ لهم في الزِّي والكلم، وتمسك منهم بسبب.

(فتْحُ الفُتوح تعالى أن يُحيطَ به   نظْمٌ من الشِّعْر أو نثرٌ من الخُطب)[2]

(1) ذوقار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس. معجم البلدان - لسان العرب.

(2) البيت من قصيدة لأبي تمام يذكر فيها فتح عمُورية وهي ذات المطلع المشهور:

السيفُ أصدق أنْبَاءً من الكتب   في حدِّه الفصل بين الجدِّ واللعب

ويقول بعد البيت المورد هنا:

فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماءِ له   وتبرز الأرضُ في أثْوابها القشب. . =

وذلك أن عساكر الموحدين استقبلت هذه البلاد الشرقية فتحها الله تتوغَّل في أرجائها، وتحُول بحول الله بينها وبين رجائها، فكلما مرَّ الموحدون بمدينة من مدائنه، أو حصن من حصونه، انحجَر الأشقياء الذين يضبطونها فيها انحجار الثَّعالب، وانزواء المغلوب بعزة الغالب، وأجال أولياء الله على الأرزاق الموجودة في نواحيها، ينتسفون رغدها، ويُلحقون بيومها غدَها، حتى كثُرت نِعمُ الله بالمحلات المؤيّدة من الأطعمة والأعناب وضروب الفواكه من الرَّطْبة واليابسة وفي كل ذلك لا تعرض لبلدة بقتال، احتقاراً لها ولمن بها! وتصميماً لغزو غيرها! ولأنَّها الناظم لنثرها، الى أن وصلت العساكر جهات بَسْطة[1]، فنزلوا منزلاً يُصاقبها يسمّى وادي القشتالي[2] واقتضى النظر إقامة بعض الأيام هناك لانتظار العسكر والحشد والرُّماة الواصلين من أغرناطة. وفي خلال مقام تلك الأيام بُعِثت خيلٌ مباركة من الموحدين والعرب لشنِّ الغارة في المَيْمنة والمَيْسرة من تلك الأقطار والجهات، فاستاقوا من الغنائم من جهة غلّيرة[3] وقرباقة[4]، وبسطة وجبال

= وقد سبق للكاتب ابن عطية أن استشهد بهذا البيت في رسالة موحدية بمناسبة انتصار الشيخ ابي حفص الهتاني على ابن هود الماسي في وادي ماسة سنة 542 في ذي الحجة. الاستقصا جزء ثان: ص 99 - 100.

(1) بسطة (Baza) مدينة تقع في الشمال الشرقي من غرناطة بالقرب من مدينة وادي آش حسنة الموضع.
الحميري: الروض المعطار ص 44 - 45. محمد الفاسي: الاعلام الجغرافية الاندلسية ص 24.

(2) وادي القشتالي (Rio de Castalla - Casala) ولم نستطع تحْديده بأكثر من أنه مكان يقرب من بسطة، والحروف في المخطوطة لا تحمل أية نقطة.
Huici: Historia Politica, page 226.

(3) غليرة (Galera)، تقع شمال مدينة بسطة جنوب قرباقة غربي (بلش) (Velez) Huici page 226 - 228.

(4) قرباقة (Caravaca) تقع شمال لُورقة وجنوب شقورة، يقول الحميري أن بها عيناً تولد الحصى وعين أخرى تفتته.
الروض المعطار 150.

شقُورة(1) عدداً جمّاً وسوائم كثيرة من الدواب والبقر وعشرات الآلاف من الغنم . [131] فملأت الوادي ، واشتملت على كريمتها الأيادي ، وتقلّب الموحدون في نِعَم لا تحصى عدة تتناسق منها نِعم فنِعم ، والشكر لله على ما أولاه . ولما وصل العسكر المنتظر من غرناطة أخذنا في الحركة الى أن انتهينا الى حصن قلية(2) ، فساعة الإطلال عليه نزل أهله من ذروته تائبين آبين ، موحدين مستجدين ، نظراً لأنفسهم ، وأخذاً لحظهم ، ثم حللنا بجهة بلس(3) عمّرها الله من سَقع كثير القرى والعمائر ، ونظر معدوم النظائر ، وفي حصون وقلاع سمتْ مبانيها بالبقاع ، وتناسقت الأعيان في الارتفاع ، فعندما عاينوا من أمر الله وجنوده ما ضرَّ عيونهم وملأ قلوبهم نزل قائدهم الشرقي(4) وأصحابه الرعية مستأمنين مذعنين ، فأمنوا تأميناً ، وأضحوا نذراً لعشائرهم يساراً ويميناً ، وقدم في حصونهم من تقدّم لضبطها ، وتشمَّر بحول الله في حوطها وهنالك استُوضح أن الشقي ابن مردنيش وأصحابه النَّصارى دمَّرهم الله قد خرج بجملته الذميمة من مرسية الى لورقة خائفاً عليها ، بعد أن استوثق خروج أهل مرسية وشيوخها ، وأهل التعيُّن فيها مع كثير من لفيفها ، لمَّا أوقع الله في قلبه من الرُّعب الذي تقدّم اليه جيشه ، حتى خفَّ به طيشه ، فلم يزد أولياء الله إلا عزماً مجدّاً في التصميم الى جهته ، والتعويل على غزوه في عُقره [132] إذلالاً له ولفيئته ، وأقاربه وحوزته ، الى أنْ قارَب الموحدون جانب لورقة ، وأمّوا البسيط السهل المعروف بالفندون على مرأى من الأشقياء

---

(1) شقورة (Segura) تقع شمال قرباقة، ومنها أبو بكر بن مجبر شاعر دولة بني عبد المؤمن. ابن الخطيب أعمال الاعلام ص 145. 228 - Huici page 226.

(2) قلية (Cullar) ويرسمه ابن سعيد هكذا قولية يقع في الشمال الشرقي من مدينة بسطة المعجب: ص 370. المغرب لابن سعيد ج 2 ص 87. 228 - Huici P. 226.

(3) بلش: (Velez - Rubio) ولا يلتبسن هذا ب: (Velez Malaga) فإن المقصود ليس هذا، وقد ضبط لدى ابن سعيد بكسر اللام وتنقيط الشين: (كتاب الترييش في حلى مدينة بليش).
الادريسي ص 186 ـ المعجب ص 670 ـ التكملة (كوديرا) ص 23. Huici page 226.

(4) لم يعط اسما صريحاً لهذا القائد الذي استسلم أمام الموحدين، أما الشرقي فلا نعتقده إلا وصفاً وليس اسماً لأن هذه الناحية تقع فعلاً شرقي موسطة والأندلس.

والكفرة ، واظهار آيات أمر الله العزيز وأعداء الله لا ينبس لهم نابس ، ولا يظهر منهم راجل ولا فارس ، وفي كل ذلك تخونهم آمالهم الخائبة ، وظنونهم الكاذبة ، أن الطريق تناكب عنهم تيامُناً الى الساحل(1) ، وتعريجاً بالمراحل والرَّواحل ، الى أن استوضحوا أن القصد مرسيتهم مرسى الوفود والورود ، فسُقِط في أيديهم حيْرة وتباراً ، ثم أبْدوا قرب بلدهم تجلُّداً ، فأقلع الخاسر عن لورقة آخر النهار ، إقلاع الصَّغار ، آخِذاً بحَزن الجبل ، والموحّدون بسهل البساط(2) . فساير الموحّدين مرحلتين ملاحظاً ما نفع فؤاده ، وحقَّر أعداده وأجناده ، وفي كل يوم من مسايرته تنتشر مواكب الموحدين على ترتبهم وتأهبهم رجاء أن يغره العجب ، والأشر المعطب ، فينجز فيه وعد الله المرتقب . فلما كان يوم السابع من ذي الحجة في حين الزوال استخار الله الموحدون على أن يأخذوا بينه وبين الثنايا التي تحول بينه وبين مرسية ، فتميّزوا شعوباً وقبائل ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه من اخلاص التوبة وأمحاض النيَّة ، فرأى الأعداء ما هالهم وأهلهم وأحال حالهم ، هذا على احتداد شوكتهم ، وكثرة عدتهم ، وتردَّدوا [133] بسفح الجبل(3) زهاء ثمانية آلاف فارس أكثرهم أرغون(4) ، وقفوا يتشاورون ويتنازعون ، ولم يجدوا محيداً عن الطريق التي ضمتهم ، ولا منفذاً إلا في الساقات التي حفَّت محيطة بهم

---

(1) لم يذكر أي ساحل يقصد ولعله يقصد ساحل وادي شقورة.

(2) لم يذكر اسم الجبل ولا كذلك اسم البساط، ونعتقد انهما معا يقعان في الشمال الشرقي من لورقة في اتجاه مدينة مرسية.

(3) من هنا تبتدىء الورقتان الباقيتان من الكراسة السابعة التي تقدمت منها ست أوراق عن محلها. وهكذا يسترجع المخطوط صوابه، وتحمل الورقة هنا رقم 67 كما هو الواقع. راجع تعليق رقم 4 ص 185 والتعليق رقم 2 ص 195 والمقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط.

(4) ارغون (Aragon) يعرفها الحميري ـ ومثله عند المقري ـ بانها بلاد غرسية بن صانشو (Garcia - Sancho) وانها تشتمل على بلاد وأعمال ومنازل، ولا شك أن في ضمن هذه البلاد مدينة برشلونة التي تقع في الناحية الشرقية من أرغون، ولهذا نرى ويسي يترجم برشلونة في ابن صاحب الصلاة بأرغون. وانظر خريطة بروفنصال في الروض المعطار فقد وضعها شمال سرقسطة وغربي برشلونة.
ابن صاحب الصلاة ص 79 ـ الروض المعطار ص 22 وص 55 عند الكلام على بنبولة ـ ويسي صفحة 208.

وعمَّتهم ، وضربوا قليل أخبية في الجبل الذي به أبادهم ، وهو فيما دبَّروا مصادُهم ومعادُهم ، وعوَّلوا أن في مشارهم أن تكون ملجأ يأوي اليها الفل ، ويجدها منهم البعض إن لم يجدها الكلّ ، فأبْدوها يعلوها القَتام ، ويبدو عليها الذُّل ، وصافَّهم جنود الله من ضحى النهار الى أن نُودي للصلاة من يوم الجمعة في أيام يقبل فيها التوب ، ويغفر فيها الذَّنب ، ويخشع القلب ، ويعبد الرب ، فلما كان وقتُ الصلاة اختار الله للموحدين أن ناشبوهم القِتال ، وقد كثر الذكر والإهلال ، فزحفت العساكر اليهم حتى دَنا السَّواد من السواد ، وتشوَّفه بالكلم والطراد ، وحملت الرُّوم حملتهم المعلومة المعهودة ، وصمدت جملتهم إذ صمدت قبيلُ رياح من الغرب فأقر جَوَّالهم والتفَّت عليهم قبائلُ الموحِّدين واحتدمتْ الحرب وحَمِيَ الوطيس وثارت سماء النَّقع دون الجو كواكبُ الظُّبا والأسِنَّة ، وثبَّت الله أقدام الموحِّدين ، وزلزلَ الله أقدام الملحِدين ، وثبَّت الساقة التي فيها الأعلام كأنها الجبالُ الراسيات والأعلام وانبرى الموحدون الأول من أهل تِينمْلَّل وهنتاتة فصبروا صبر أمثالهم ، [134] وخوَّلهم الله اقبالاً في استقبالهم ، وأجفل الكَفَرَةُ منهزمين ، وولوا الأدبار مدْبرين ، والسَّيف يأخذُ منهم فوق ما يدع ، وحزْبُ الله يتقدم غالباً فيصرَع ويصدَع ، وقتل رجال الشقي(1) ومشاهيرُه ، والروم أكثر القَتْلَى فيهم فخرُّوا كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية ، وعجَّل الله بأرواحهم الى نارِه الحامية ، وسَقَطوا من مهواهم الى الهاوية ، ولاذَ الشقي الفَليل ، في العددِ القليل ، إلى الأخبية التي أعدَّها للفرار ، لا للقَرار ، وقد خَيَّر من حدّ السيوف وأنبائها ما أغناه عن الأخبار ، وشفَى الله صدورَ المؤمنين من أعدائهم الكفار ، وصاروا بين أيديهم جزراً ، قد افترشوا فناء في مقتلهم هذا وعقراً ، ونفَّل الله من خيلِهم ومطاياهم وإدراعهم وسائر أسلحتهم ما جلَّ قدرُه وعمَّ كثره ، والحمد لله رب العالمين ، جاعِل العاقبة للمتَّقين . وبعد ما تبعهم الحُسام الى الأصيل ، وصرعهم بكل مَسيل ، وقف الخاسر خائفاً يترقب وقوف الذليل ،

(1) يعني ابن مردنيش . . .

وسلب قتلاهم من ملابسهم بكل واد ومسيل ، بادر الموحدون في غدِهم على مَهلهم الى فناءِ مرْسية ، فضربت بساحتها المضارب والأبنية ، بإزاءِ حدائقها المعْروشة ، وبسائطها وبَسَاتِنها المشيَّدة المفروشة فكان سِبَاقُ الموحِدين إياه الى ناحِيتِها من أشق ما أخْزاه الله بهِ . ونقرت الطُّبُول تصُكُّ [135] أسْمَاعَهم فمكنت الزلازِلُ في جَوَانِبه ، وركِبَ الليْلُ جَمَلاً ، واحتلَّ البلد - ولم يكدْ - تسلُّلاً ، وانبسط تبَّاع الموحدين على تلك الحَدائق محصِّلين لأنواع الفَواكِه ، وعادَتْ مَبَانِي تلك البَسَاتين وأعواد الأشْجَار والرياحِين ، مُحْتطِباً ومتاعاً للمُقوين من الجنود ، وصار سَعْدُ الأخبية سعْدَ السُّعود(1)! وأقام الموحدون للتَّعْييد ، وقد جَمَعَ الله لهُم الأعيادَ في عيد ، والله تعالى يُوزِّع شُكْرَ هَذا الفتح العَظِيم ، ويفضي لنادِيه بأكرم عواقِب التَّتميم ، إنَّه منعم كريم .

وأعلمناكم - وصل الله سراكم - بهذه البشارة العظمى التي هي نادرة المَسارّ النُّعمى لتأخُذوا بما وفر حظُّكم مِنْ شُكر الله عَلَيْها ، وتتسوَّغوا آلاء الله السابغة باجتلاء ما لَديها ، فهو فتحُ الأنْدَلس وإذلال عدوِّها المتمرِّد المتصحِّب ، مُسلَّط الروم عَبَدة الأوثان والصُّلبان ، على أهْلِ الإسلام والإيمان ، والله يشْفَعُ ذلك بأمثاله ، ولا يخلي من يَنْصُر الحق من عضده وإقباله ، وقد بُهِتَ هَذا العدوُّ الخَائِن مَحْصُوراً ، ودُهِش مذمُوماً مدْحُوراً ، ونَظر بعين الحَسْرة حَسِيراً . وهَلَك بعَين الحَسْرةِ بالمَعْنَى المَحْسُوس إلاَّ يَسِيراً ، عرَّف الله للموحدين بركةَ مقاصِدِهم ، وتولاَّهُم بمعْهُود إظْهارِهم في مصادرهم ومواردِهم ، بعزَّتِه وقدْرته وطوله ، لا ربَّ سِواه والسَّلام عليكم ورحمة الله [136] وبركاتُه . كُتب في العشر الوَسط من ذي الحجة عام ستين وخمس مائة .

(1) وصار سعد الأخبية سعد السعود: يعني آذن الله بتقليب الأحوال من غموض إلى وضوح ومن شؤم إلى يمن، فقد عرف عند المنجمين أن سعد السعود هو أحمد السعود ولذلك أضيف إليها وهو كوكب نير، كما عرف أن كواكب سعد الأخبية ليست مُضيئة ولا منيرة وأنه سمي كذلك لأنه إذا طلع خرجت حشرات الأرض وهوامها من حجراتها وأخبيتها .

وبعث السيِّد الأعلى مع هذه الرسالة مدرجاً فيها قصيدة شعر[1] أولها :

(وافر)

لَقَدْ بَلَغَتْ جِيادُكُم مَداها ... ونالتْ ما أرادَتْ مِن عِداها
وهَا هي فاسْئَلوا الإصْباحَ عنها ... بحَمْدِ الله قد حَمَدَتْ سُراها
تَعُدُّ رِضاكُم عزّاً وَجاهاً ... فما تشْكو على حالٍ وجَاها
تهيمُ بحُبِّ طاعَتِكُم فتطوي ... بِساطَ القَفر حتى قدْ طَواها
كأنَّ قَطا المفاوِز حين سارَتْ ... تعَلَّمَتِ الهِداية من قَطاها
لقدْ شنَّتْ بأرْضِ الشَّرْق حتى ... أباحَتْ بعدَ مَنعتِها حِماها
أُتيحَ بها لِتدْمير دَمَارُ ... فدُكَّ على ترائِبها رُباها
ولمَّا لمْ تَلُذْ بالعَفو مِنكُم ... تَعاوَرَها الرَّدى حتى عَفاها
ألا لله أيُّ مَقام هَوْلٍ ... تحُلُّ الرَّاسِيات له حُباها
إذا سَمِع القَنا عنهْ حَديثاً ... ثَنى أعطافَهُ طَرَباً وتَاها
تراكَمت القَساطِلُ فيهِ حتى ... جَلَت أنوار سَعْدِكُم دُجاها
ذَرَتْهُم فيه ريح النَّصر طِحْناً ... غَداة أدارَتِ الهَيْجاء رَحاها
فقد نَهَلتْ سيوفكُم وعَلَّت ... فما تشكو الصَّدا أبداً ظُباها
فإن ينْجُ اللَّعينُ لغَير مَنْجى ... لقد فغَرَتْ شعوبُ عليه فاها
[137] تكتم في غِمارٍ أو غُبارٍ ... وعَينُ الحرْب لم تطْحَر قَذاها
وَوَلَّى يقْطعُ البَطْحاءَ شَرّاً ... على شَوْهاءَ ما ونَيتْ شَواها
ولو فاتَتْ وَميض البَرْق عَدْواً ... لخَطّاها ولمْ يحْمَد خُطاها
وبَاتَ يُصارعُ الظَّلماءَ وَهْناً ... ويحْسُدُ مِنْ كَواكبها سُهاها[2]
رَماهُم أمرُكُم ببني حُروبٍ ... إذا انتُدبوا لَها حَسُّوا لظاها

---

(1) اقتصر ابن عذاري على ذكر بعض الأبيات من الرسالة الشعرية معتذراً عن الاتيان بنصوص الرسالة النثرية ص 51.

(2) السهى والسها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى، ومنه المثل العربي: «أريها السهى وتريني القمر»!

صغارُهُم لهُم هِمَمٌ كبارٌ ... أبَتْ أن تقْتني بسِوى قَناها
إذا صُوَر الحَمام بَدَتْ أفاضوا ... مضرَّجة الدِّماء على دِماها
فَبُورِكَ للخَلِيفة فِي رِجالٍ ... أطاعوا الله فيمَن قد عَصاها
فأرْضَوا ربَّهُم بِرِضا مليكٍ ... يرى الدُّنيا بناظِر مَنْ قَلاها
ورُبَّ سريرةٍ لله فيه ... تبَدَّى في أسِرَّتِه سَناها
فما يَنْفَكُّ يخْبِطُ في ضَلالٍ ... غَويٌّ لا يُريعُ إلى هُداها
هَو النُّورُ الذي بَهَرت ولاحَتْ ... (به)[1] شمسُ الهِداية في ضُحاها
حياهُ بهِ الخليفةُ عن إمامٍ ... قد انتاشَ البرِية مِن عَماها
أبا يَعْقوب إنَّ بِنا إليكُمْ ... كما بالحائِمات يُرى صَداها
إلى نُطَفٍ جَلَتْها الرِّيح حتَّى ... غدَتْ زُرْقاً ترَقرقُ في حَصاها
فلو نفَحَتْ نواسِمُكم نضَحْنا ... على حَرِّ الجوانِحِ مِنْ نَداها
حَدا بالعِيس نحوكم اشْتياقٌ ... أراها كيفَ تنفخُ في بُراها
فلولا أن يُلِمَّ خَيالٌ ... لمَا التَذَّتْ ببُعْدِكُم كِراها
لوَتْ أعْناقَها طَرَباً إليكُم ... فهَلْ يَشْفِي التَّداني مِن صَداها
[138] سَيَقضي حَاجَها الرَبُّ الذي لم ... يدَعْ مِنْ حَاجةٍ إلَّا قضاها
ودونَكُم تحيَّة مُسْتهامٍ ... يَطيبُ الجوُّ من مَسْرى شَذاها
ولا عدِمتكُم العَليْا فَمْهمى ... رعَاكُم ذُو الجَلال فقد رَعاها

وأمر الأميرُ الفقيهَ أبا محمد المالقي أن ينشد هذه القصيدة المدرجة في الكتاب الواصل بمحضر أشياخ الموحدين وشيوخ طلبة الحضر في مجلسه العالي فأنشدها ، فاستبشروا بها واستحسنوا أغراضها بالأخوة الموصولة ومقصدها ، وزادوا استبشاراً إلى البشرى بالكتاب ، ودعوا الى الله تعالى في تمادي النصر والعافية وتعجيل اللقاء بالإياب ، من الأخوة الأحباب ، وضربت الطبول فيها !

---

(1) هنا في أصل المخطوط شبه كشط ولعل مكانه «به».

(بقية أحداث سنة 560)

وفي هـذه السنة سنـة ستين المؤرخة بعـد مغيب السيد الأعلى في هـذه الغزوة توقف أهل جبل صنهاجة[1] ومن جوارهم عن أداء الطاعـة فعسكر إليهم الشيـخ المرحـوم أبو حفص بعـزم وفائـه ، وصحة إخـائـه ، ومعـه عسكـر من الموحدين أنجدهم الله لقتالهم ونزالهم .

وفيهـا أيضاً اختص الأمير الأجل الأعـدل بوزارتـه أبـا العلي ادريس بن جامع وقرَّبه وأحبه ، وماشى معه الفقيه أبا محمد المالقي في المسائل ، ولازم رضي الله عنه المذاكـرة مع أبي الحسن بن الإشبيلي الخطيب في المحـافـل [139] عند ورود البشائر ، وكذلك مع أشياخ طلبة الحضر واتَّدع فيهـا متوفـراً على تمهيد سلطانه وتألف خاصته من رجالـه ، والانتهاض الى الاستيـلاء على حاله ، وتفرَّغ للتحنث في عبادة ربه ، إذ كان نسيج وحدِه في الزهد والورع ، فـظهرت في هـذه المدة للنـاس في أحوالهم منـه وبه دلائـل اليُمْن ، واتصـال العدل والفضل والأمن ، يسير المراكب حيث شـاء من بلاد العـدوة في طرقهـا من جبلها وسهلها آمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله أو الذيب ! وأحسن لمن وفد اليه واستغـاث بـه وبفضله من أجنـاد أهل الأنـدلس المضاعين المـأسورين عند النصارى ، ففـداهم بمالـه وسيل عليهم الخيـل بسروجهـا ولجمها وآلات الحرب لها وجبرهم وكساهم ، وواساهم وحباهم ، وأوصل البركـة للموحـدين

(1) يقع جبل صنهاجة في شمال المغرب وجنوب مدينة سبتة، وهو ـ كجبل غمارة ـ يجاور مـدينة نكـّور التي امتـد منها الاسـلام إلى أهل صنهـاجة وغمـاره. وصنهاجة قسمان: صنهاجة الظل وصنهاجـة القبلة. الاستبصـار ـ نشر زغلول عبـد الحميـد ص 129 - 136 - 189 - 213 ـ أخبـار المهـدي بن تومرت ص 46.

Léon L'Africain Description de l'Afrique 1956 page 12 - 14.

Henri Terrasse:

Histoire du Maroc Tome 1 page 22 - 23.

196 - 197

211 - 260

والناس المقيمين معه بحضرته ، ولـطلبة الحضـر الوافـدين في كل شهـر على التوالي والاستمرار ، واستبان فضله وعدلـه نوراً من الأنـوار ، وأخذ الـزكاة من المـاشية والحـرث على حكم الكتاب والسنَّـة ، ووضعها في مـواضع حقهـا ، وتيمَّنت القلوب بـدعائـه ، وأصغت الأسماع الى نـدائه . فحـدثني أبو محمـد سيد راي بن وزير أنه ذكر له في مجلسه الكريم توقف صنهاجه ومن جاورهم عن الـطاعـة ، وأنـه قيـل لـه ادعُ الله عليهم ! فتـوقف ، ثم قـال : « الله تعـالى يهديهم ، ويصرفهم [140] عن تعـذِّيهم » ، فما كـان إلا قليل أيـام ووصلت البشـرى بهزيمـة ابن مردنيش وظهـور أمر المـوحدين ، واتصـل خبر البشـرى بـالفتح في الجبـال ، ووجهوا في الحين بـالتوبـة راغبين ضارعين ، وكفى الله القتال للمؤمنين ، وانصرف الشيـخ المرحـوم أبو حفص وهم في طوعه وتبعـه بأتمّ النجح ، وأتَّصل الفتح بالفتح ، وأنشد الشعراء الحـاضرون بـالحضرة في وصول الفتح البعيـد والقريب . وعيَّـد السيدان أبـو حفص وأبو سعيد بالمحلة المؤيدة بظاهر مرسية عيد الأضحى على أسرِّ التعييد والظفر والنصر على غلبة عـدوّهم ، ثم انعطفـا آخذين في الانصـراف ، الى الحضرة الإمـامية على أتمّ السرور بالنصر والآخرة والائتلاف ، وتركـا في البلاد المفتتحـة من الموحـدين والأمناء من ثقَّفها ، وضبطها لـلأمر العـزيز وشـرَّفها . ولـمَّا وصلا قـرطبة أقـام السيد أبو سعيد فيها برأيٍ من الأمر ورأيٍ متقـدم واتفاق على حـالته الأولى ، وأنفصل السيد الأعلى عنه إلى إشبيلية منصـرفاً الى الحضـرة وهو يجرُّ الدُّنيـا خَلفه جرّاً ، ويقدمه النصر سراً وجهراً ، وقد سقى أعـداءه دعاقـاً مراً ، ورفـع الله له في الأمر والتوحيد ذكراً ، وجاز البحـر منصرفـاً مستعجلاً ، حتى وصـل قرية (مكول)[1] بعد انفصاله من[2] مدينة سلا فكتب الى الأمير أخيـه متشوقـاً

(1) قرية مكول: حصن كبير كانت بها سوق نافقة ـ على عهد الادريسي بما يجلب اليها وبها زرع كثير ومواشٍ وأنعام، وبالمقارنة نجد أن هـذه هي المرحلة الأولى في الـطريق الساحليـة إلى مراكش من مـدينة سـلا، وقريـة مكول هـذه التي تحمل اليـوم اسم مكون (Mekoun) بـين سيدي سليمـان والمذاكرة حيث توجد بعض آثار قصبة قديمة. Huici page 248 Com No 5 .

(2) يسوقُ ابن عذاري هـذه المقاطـع في إحداث سنـة إحدى وستين وخمسمائـة وهو يتفق مـع تاريـخ الوصول إلى مراكش ـ انظر صفحة 52 من ابن عذاري وص 141 من المن بالامامة .

بشعر وهو من إنشاء [141] ابن حربون : (خفيف) .

عـلِّلُوا العِيسَ بـاقـترابِ الـدِّيـارِ   وانـظروا هَـلْ بَـدَا لَهـا من مَنـار
وارْفَعُـوا للمدَى بـأيدي المَـطايَـا   لـمَّـةَ الليـلِ عـن جَبِين الـنَّهَـار
واسـتـطِيلوا على طِـوال اللَّيَـالي   واشتكُـوهَـا الى اللَّيَـالي القِصَـار !
لا تَقـولُـوا من بَعْـدِهـا بغَلِيـل   قَـدْ دنَـوتُـم من الـمِيَـاه الـغِـزَارِ
هـذه كـعبـةُ الـعُـلَى فـأهِـلُّوا   واقـرنُـوا بـين حـجَّـةٍ واعْـتِـمَـار
هَـذِه حـضـرةُ الإمـام فـحُـطُّوا   وأنِـيـخُـوا مِـنْـهـا بِـدَار قَـرَار
فِي جَنَابٍ تُمْسِي السَّحاب وتُضْحِي   سَاجِباتٍ عَـلَيـه فَـضْـلَ الإزَار
فَـبِهَـا أَسْفَـر الـصَّبَـاحُ عَـلَيْكُـم   ووُقِـيتُـم وغْـشَـاءَ هَـذا الـسِّفَـار
فـاشْكُـروا للركـابِ أنْ جمعْتكُـم   بـالأمِـيـر الأجَـلِّ فَـرْع نِـزَارِ[1]
بـمليـكٍ عِـنْـد المليـكِ مكيـنٍ   قَـدْ كَسـاهُ ثـوبَ التُّقَى والـفَخَـارِ
نَـصَـر الله ديـنَـه مِـنْ لَـدُنْـكُـم   بجُيُـوشٍ جَـاسَتْ خِـلال الـدِّيَـار
بـجُيـوشٍ تـسمـو الـى كـلِّ نـارٍ   فـي رِدَاءٍ مـن الـقَـتَـام الـمُـثَـار
فـكـأنَّ الآفـاقَ فـي لـمَـم شُـقْـ   ـرٍ لَهَـا من شَبَـا الـرمـاح مَـدَاري
أي بُـرْدٍ مـن الـثـنـاءِ جَـمـيـلٍ   ألبَسَتْهم تلك الـسُّيُـوف الـعَـواري
قَـدْ لقيـنـا بيُـمنكُـم كُـلَّ خَـيْـرٍ   غَيْـرَ مـا كـان مِنْ نُـزُوحِ الـمَـزَار
فـبعَـثْـنَـا هَـذِي الـقُـلوبَ اليكُـم   وانـطَـوَيْنَـا عَلى الضُّلُوع الـحِـرَار
فَـعَسَـى أن يُـعَـار يـوم الـتَّـلاقِي   وخُـذُونـا بـردّ تِـلْك الـعـواري
إن يَـومـاً نـلـقـاكُـمُـوهُ لأهْـلٌ   أن يُـسمَّى جَـبِـيـنَـةَ الأعْـصَـار
[142] بلغتنا مكول أنضـاءُ سَيْرٍ   أكلَتْـهـا الـقِـفـارُ بَـعْـدَ الـقِـفـار
فـوجَـدْنـا مِن ريح يُـوسفَ ما لم   نـتـوقَّـعْ عـلـيـه تـفْـنِـيـدَ نـار
فـكـان الـقـطـار عـنـكُـم تُـحـيي   بـنَـسِـيم الـرِّيـاضِ بَـعْـدَ الـقِـطَار
كَـمْ كَتَمْنـا الجَـوَى فلَمَّـا دَنَـوْنـا   بَـاحَ هَـذَا الـنَّسِـيـمُ بـالأسْـرار

(1) تقدم التحقيق في نسب عبد المؤمن. فراجع التعليق رقم 6 ص 157 ورقم 1 وص 176 وانظر الاستقصا أول ص 62.

فـإذا مَـا ذُكِـرتُـمُ فـي مَـكَـان   لَـثَـمَـتْـه مَـبَـاسِـمُ الأزهَـار
فـسَـلامٌ يَـغـارُ مـن طِـيـب رَيَّـا   هُ هَـبَّ كُـل رَنْـدٍ وغَـار[1]
يـتـقَـرَّى الأنـوار حـتَّـى يُـحيِّي   بـشـذَاهُـنَّ مَـطْـلِـعَ الأنْـوار
عَـلَّهـا تَـبْـرد الـحَـشَـى بِـنـدَاهُ   إن زَنْـدَ الأوَارِ مِـنْـهُ لـوار
وعَـفَـا عـلى الـعِـبـادِ فـإنَّـا   قَـدْ أخَـذْنـا للبُعْـدِ مِنْـه بثَـار !

وأعمل السير متشوقاً فكان وروده حضرة مراكش ضحوة يوم السبت الحادي عشر من ربيع الآخر الموافق للخامس عشر من يناير العجمي[2] من عام واحد وستين وخمس مائة .

(احتفال الامام أبي يعقوب في مراكش بمقدم أخيه السيد أبي حفص)

واحتفل الأمير الإمام أبو يعقوب رضي الله عنه بالبروز واللقاء إليه بنفسه بعد أن كتب كتائِبَه المنصورة الحاضرة معه بحضرة مراكش ، وكسا العبيد بالثياب المصنَّعة الألوان[3] ، وصفف الفرسان الكمَّل المدرعين من الموحدين وغيرهم والرجال بالدَّرق والرماح صفوفاً ، وجعل الرايات والعلامات خلف ركابه ، والطبالين مع خاصة أصحابه ، وهو راكب[4] [143] علي جواده

(1) الرند: شجرة طيبة الرائحة مهدها الأصلي أوربا الجنوبية وآسيا الغربية، وجعل منها الأقدمون رمزاً للنصر، أما الغار فهو كذلك شجر طيب الرائحة، ورقه دائم الخضرة كانوا قديماً يضفرون من أوراقه أكاليل للمنتصرين.

(2) الموافقة هنا صحيحة: 15 يناير 1166 .

(3) نرى أن ابن صاحب الصلاة أحياناً يستأثر دون سائر المؤرخين بالتعرض لبعض الأشياء ، وهو هنا يتحدث عن أزياء بعض فرق الجيش وانها كانت مصنعة الألوان، وإن سكت عن إعطاء التفصيلات عن هذه الألوان. وقد قرأها بعض الباحثين «مصنفة» كما قرأها اخرون «مصبغة» Melchor: campanas de los Almohades en Espana P. 6 .

(4) وصف دقيق للموكب الخليفي، العبيد بثيابهم الملونة، والصفوف من الفرسان والرجالة وقد حملوا الرماح والدرق والرايات من خلف الامام والموسيقى مع خاصة أصحابه، ووزيره لصق ركابه يمشي على قدميه بينما يجعل أمير المؤمنين على كتفه رمحاً طويلاً قد غشى سنانه .

العتيق ، ووزيره أبو العلا إدريس بن جامع راجلاً لصق ركابه ماشياً يحدثه ، ويأمر الأمير بالأوامر فينفذ إدريس المذكور فيها ثم يرجع اليه ، وعلى عاتق الأمير رمحٌ طويل قد غشى سنانه . فلما خرج عن الغشاء الذي كان يستره ، والتقى بأخيه السيد الأعلى المنصور المذكور في البراح الذي كان في ذلك التاريخ متسعاً في باب الشريعة[1] المتصل بالشريعة القديمة وهو اليوم مدينة ثانية[2] متصلة بمراكش القديمة ، ووقف العسكر مع السيد القادم أبي حفص

---

(1) باب الشريعة :

تعتبر باب الشريعة أحد أبواب مراكش التي عرفت منذ التاريخ المبكر، وكانت تنفذ إلى مصلى العيدين، وقد هدم معظمها عندما تقرر بناء ضريح الامام السهيلي، وكادت تختفي لولا جهود الذين تتبعوا آثارها بالبحث، ومعلوم أن موضع الشريعة في تعابير الفقهاء المسلمين يعني المصلى، أي مكان إقامة صلاة العيدين، التي تكون عادة ظاهر المدينة، وقد شوش هذا الاسم (الشريعة) على المستشرق الكبير دوزي فغدا يفترض بعض الفروض وورد في تعبير لصاحب الاستبصار: «وفي كل عدوة من فاس شريعة لخطبة العيدين».

المن بالامامة صفحة 291 ـ الاستبصار صفحة 181.

مخطوط ابن عذاري صفحة 120 ـ ابن القاضي : جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام مدينة فاس صفحة 27 سنة 1309 هـ.

Dozy; Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, Tome Premier. page 383 - 384.

Provençale: Notes de toponomestique P. 223. le Tourneau: Fisavant le protoctor-at P. 110.

المنوني نقلاً عن ابن سعيد ص 251.

Allain et Deverdun: les portes Anciennes de Marrakech. Hespèris 1957 page 114 - 115 - 116. Caston Deverdun: Marrakech des Origines à 1912. Tomme 1 page 123.

(2) يدأب الولاة الجدد على طمس آثار الذين يسبقونهم، ولم يشذ الموحدون عن القاعدة، ولذلك تراهم يعرضون عن مباني المرابطين بما فيها المساجد، ونراهم يطمسون معالمهم في كل مكان، وها هم هنا يحدثون مراكش جديدة.

الادريسي ص 68 - 69: كتاب الاستبصار في عجائب الامصار: نشر سعد زغلول عبد الحميد طبعة جامعة الاسكندرية 1958 ص 209 - 210؛ البيذق ص 105 - 120؛ محمد المنوني: الفنون على عهد الموحدين ص 249 - 250 نقلاً عن مسالك الابصار لابن فضل العمري، المعجب ص 360؛ الحلل الموشية ص 113 - 119؛ التازي ـ الحروف المنقوشة بالقروين في خدمة الآثار: المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية طبعة القاهرة 1961 ص 447.

بإزاء الشريعة ، ووقف عسكرُ الإمام معه في أول البراح المذكور ، وتجاولت الخيل من فرسان العساكر بالجري واللعب والدفاع بالحملات والكرات والطبول تضرب من ضحوة النهار إلى آذان الظهر من اليوم المذكور ، حتى حمل الأمير بنفسه[1] في تلك الدفعات سروراً فأظهر من ركوبه وفروسيته أمراً عجباً. ثم نزل الأمير عن فرسه ، ونزل السيد الواصل أيضاً والتقيا وتصافحا وسلما ، ثم سلم الناس الواصلون بعضهم على الأمير ، وعلى من حضر ، وركبوا وعادوا الى العساكر ودخلوا الى القصر العتيق : دار الحجر[2] في أعظم بروز وأحفل تمييز بعد صلاة العصر في أول العشية من اليوم ، واجتمعا خيْرَ اجتماع ، وكان من البروز الحافل ما أبهت الناظرين لغاية الإجماع . وفي اليوم الثاني من هذا الوصول [144] السَّعيد ، صُنع للموحدين الواصلين والعرب ولجميع المقيمين من جميع الأصناف الأطعمة الدارة ، والأشربة الحلال المدارة على المسار السارة ، مدة خمسة عشر يوماً في نعيم وسرور مقيم ، ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة من العمائم والغفاير[3] والبرانس والأكسية بأن حصل لكل فارس غفارة ، وعمامة وكسا ، وقبطية[4] وشقة . وأنعم على جميع الناس الغازين والقاطنين بذلك ، وعلى طلبة الحضر ، وأدرت عليهم البركة الحافلة من الذهب والدراهم : لكل فارس عشرون ديناراً[5] ، ولأعيان

---

(1) ترى أن ابن صاحب الصلاة يسترسل في ذكر طرائفه، فهو يصف هنا «حملات الخيل» التي ما تزال تجري في المغرب إلى الآن وخاصة عند الأفراح والمواسم. والطريف هنا أن نرى الخليفة نفسه يندمج في شعبه فيأخذ بعنان فرسه ليقوم هو كذلك بدور الحملة «المصطنعة».

(2) حول دار الحجر راجع التعليق رقم 1 ص 169.

Dozy. Sup T. II p. 218.

(3) جمع غفارة: كساء يلبس فوق آخر، لسان العرب.

(4) ترى كيف جعل الاكسية التامة تتألف من العمائم والغفائر والبرانس والاكسية، ثم أعطى مفردات لجل هذه الكلمات عمامة، غفارة، كساء، وأضاف القبطية التي هي الثوب الأبيض الرقيق من الكتان، والشقة التي هي عبارة عما شق من الثياب على شكل مستطيل.

(5) يقصد في أغلب الظن الدينار اليعقوبي المنسوب إلى أبي يعقوب وبالرغم من أنه من الصعب اعطاء معادلة مضبوطة لمقدار الدينار، فإنه من المفيد ـ اعتماداً على ما كتبه الأستاذ ماسينيون ـ أن نعلم أن وزن الدينار الموحدي بالذهب 729 ,4 (غرام) (أعني بزيادة 704 على الدينار الشرعي)، وإن ـ



الموحدين وأشياخهم لكل واحد ماية دينار ، ولأشياخ العرب لكل واحد مـاية دينـار ، ولساير عسكر العرب عشرون ديناراً لكل فـارس ، فاجتمع لجميع الناس السُرور ، والمـال الحاضر الموفـور ، وعادت الطبول بـالنَّفر فيهـا مدة خمسة عشر يـوماً . وبعـد هذا الإنعـام التام ، والإفضـال العام ، رجـع الناس الغازون الى قبائلهم للاستقرار ، بعد نيل الغزو السعيد ، والأجر المزيد ، في هذه الأسفار .

وخمدتْ نار الفتنة من ابن مردنيش مدة خمسة أعوام الى أن حدث بينه وبين صهره ابن همشك الشنئان الذي أذكره بعد أن شاء الله تعالى ، فنظر أمير المؤمنين في غـزوه على ما يـأتي ذكره[1] في هـذا التّـاريخ مفسـراً من تجهيز البعوث والعساكر الى جزيـرة الأندلس [145] استعـداداً لغزوه إلى أن غـزى وحصر بمرسية قاعدته في عام ستة وستين وخمس مائة .

الابتداء بالولايات من الأمير لأخوته السادات . وللحفاظ النبهاء من أبناء شيوخ الجماعات على ما يذكر

قال المؤلف : ولما كمل شغل الأطعام والأنعام ، ميَّز الناس على جميع طبقاتهم ، على ما حضروا به من كسـاهم وهيئاتهم وخيلهم ورجلهم ، فكتبت

- قيمته بالفرنك الفرنسي كانت أوائل القرن العشرين 14,50، وهكذا تكون قيمة المبلغ المأخوذ مائتين وتسعين فرنكاً يعني فرنك أوائل القرن العشرين... ويقدر القدماء وزن الدينار بأربعة وعشرين قيراطاً، ويذكرون أن القيراط ثلاث حبات فيكون المجموع 72 حبة. الاستقصا ثان:

Luis Massignon: Le Maroc dans les premiers années du XVI siècle 1906 page 102 - 103:

Miles: ENCYCLOPEDIE de l'Islam T. II. Livraison 27 p. 305 Edition 1962.

Bréthes: Contrubution a l'histoire du Maroc 1939.

محمد الصبيحي : ابلاج الفجر، عن المسائل العشر، طبعة الرباط، 1940 ص 9 - 18 .

محمد الزغاري : معرض نقود اسلامية وقديمة 1962 ص 16.

التازي: تاريخ جامع القرويين طبع دار الكتاب اللبناني: سنة 1972 الجزء 1 ص 76.

(1) يعني صفحة 260 - 264 - 268 - 270.

أسماؤهم على الاستيفاء ، وتكرار الأسماء ، والسمح لهم في تحيُّلهم للأقوياء منهم والضعفاء ، وخرجتْ لهم البركة على الذي كتبوه ورتَّبـوه نظر الأمير أولاً بمشاورة أخيه السيـد الأعلى أبي حفص في حديث بجـاية وأنـظارها إذ كـانت دون والٍ ، وعلى حـالة إغفـال ، محتاجة للنظر لهـا بسيـد يفتح لهم زهـرة الآمال ، فاختاروا لها من الإخوة السيد أبا زكريا يحيى بن أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه ، فتوجَّـه اليها من الحضـرة غرة جمـادى الأولى من عام واحـدٍ وستين وخمس مائة في جملة متعينة من أبناء الجماعة والحفـاظ ، والموحـدين أهـل الديـانة والاحتفـاظ ، ومن عسكر أهـل بجايـة وأنـظارهـا على مـا رأوه ، وأستخاروا الله عليه ونوره .

(الاحتفال بتنصيب أبي عبد الله بن أبي إبراهيم والياً على إشبيلية)

ثم نظروا [146] أيضاً في حديث إشبيلية إذ كانت أيضاً دون والٍ ينـظر في عسكـرها ، وأجنـادها وثغـرها ، فـاختاروا لهـا من أبناء الجمـاعـة النبهـاء الفضلاء الفرسان الأنجاد من أهل الأديان الشيخ الحافظ أبي عبد الله بن الشيخ المـرحوم أبي إبـراهيم صاحب المهـدي رضي الله عنه ، واتفقـوا على ولايتـه عليها ، وأحضروه وأمروه بذلك ، وقدَّموه عليها يوم الجمعة بعـد صلاة الـظهر الحـادي والعشـرين من جمـادى الأول بمـوافقـة الخـامس عشـر من أبـريـل العجمي[1] من سنة إحدى وستين وخمس مـائـة المؤرخـة . وعقـد لـه الأمير رايتين في مجلسـه الكريم وميَّـزوا له جملة وافـرة متعينة من الحفـاظ من أبنـاء أهل خمسين من الموحدين أعزهم الله من كل قبيلة من الموحـدين ، وعين أن يزر له ، ويسوس أحواله ومسائله ، الشيخ الحافظ أبا يحيى زكريا بن يحيى بن سنان لثبات أبيه في أهل خمسين ، ولحفظه هو كتاب الموطا وعرضـه عليه في مجلس[2] الخليفة أمير المؤمنين ، وظهور النجابة عليه من شبابه الى فتوَّته ومـا

(1) الموافق هو 25 مارس 1166.

(2) كان اهتمام الموحدين بأمر التّعليم عظيماً، وكثيراً ما كـان الخلفاء يشرفون بـأنفسهم على مباشرتـه والحض عليه. المنوني، ص 27 - 28.